زنوبيا
سيدة الشرق

هي واحدة من أشهر ملكات التاريخ.

ولكن بالرغم من ذلك، فإن أصولها ليست معروفة على وجه الدقة.

فلقد اختلفت الآراء حول جذورها العائلية.

البعض قال: إنها ابنة زعيم عربي.

والبعض الآخر قال: هي يهودية من سلالة سليمان الحكيم.

أما هي، فقد كانت تؤكد مفاخرة: أنها من سلالة ملوك مصر العظام.

كانت جميلة، مثقفة، أجادت اللغات اللاتينية واليونانية والآرامية والقبطية، وكانت صاحبة علم واسع وإلمام عميق بتاريخ العالم، كما اطلعت أيضاً على الفلسفة اليونانية، فقرأت كتب أفلاطون وهومر وغيرهما، وقد بلغ من تفوقها في علم التاريخ واهتمامها به: أنها جمعت تاريخ الشرق: مصر وآسيا، وقامت بكتابته بنفسها، فظل هذا العمل دليلاً ناطقاً على براعة هذه الملكة وسعة اطلاعها.

obeikandl.com

ولكن اللافت للنظر في شخصية زنوبيا صفتان أساسيتان، فقد كانت طموحة بشكل يفوق طموح الرجال، كما أنها كانت شجاعة وجريئة بحيث يصعب على المرء أن يصدق أن هناك امرأة تتصف بمثل شجاعة زنوبيا.

تزوجت زنوبيا من الأمير أوذينة، الذي كان يتزعم عدة قبائل في الصحراء، فاستطاعت بعد زمن وجيز أن تدفعه لتوسيع أملاكه: بثت فيه الروح القتالية، ووقفت بجانبه تؤازره في المعارك، وتشير عليه، حتى زادت فتوحاته وبسط سلطانه على كل الشام والجزيرة، بل لقد حارب سابور كسرى الفرس، وهزمه في موقعة شهيرة، فلقب بملك الملوك.

ولكن لسبب غير معروف، قام ابن أخيه بذبحه غيلة وهو وسط قواده أثناء إحدى الغزوات.

فلما وصلت هذه الأنباء إلى زنوبيا، وكان أكبر أولادها "وهب اللات" مازال طفلاً، سارعت بإعلان نفسها ملكة على مقاطعات زوجها، ومن ثم: لبست تاج الملك، وحكمت ملكة تدمر كملكة شرعية.

إن التاريخ ليذكر هذه الملكة المتفردة بكثير من الإجلال والتعظيم.

فهي الملكة العربية الفاتحة، والتي كانت أمجاد فتوحاتها وانتصارها في المعارك سبباً لتلقيبها بـ"ملكة الشرق"، وما إن اعتلت العرش حتى وجهت اهتمامها لتوسيع أملاكها، وانتهزت فرصة الفوضى السائدة في روما ـ نتيجة الاضطرابات والمشاكل الداخلية ـ فوجهت جيشها بعد أن أعادت تنظيم صفوفه، وقادته بنفسها نحو العراق وآسيا الصغرى حتى حدود أنقرة، فاستولت على تلك الممالك وضمتها إلى مملكتها.

ثم قادها طموحها لاحتلال مصر.

فقد ادعت فجأة أن لها حقوقاً شرعية على مصر: كونها سليلة كليوباترا إمبراطورة مصر!

وفعلاً وصلت جيوش زنوبيا إلى مصر، فاجتاحتها بسرعة، ودخلتها الملكة دخول الفاتحين المنتصرين، واستقبلها المصريون استقبال الأبطال، فأصبحت إمبراطورة على مصر، وبذلك امتدت إمبراطوريتها من شواطئ البوسفور حتى حدود النيل، فاستحقت عن جدارة لقب "سيدة الشرق"، ولو كان القدر قد أمهلها: لأصبحت سيدة العالم كله دون منازع، فقد كان طموحها لا يقف عند حد.

بعد أن أتمت زنوبيا فتح الممالك الشرقية، رجعت إلى عاصمة ملكها تدمر، تدبر شئون الحكم، وكانت إذا دخلت مجلسها: أدخلت ابنها وهب اللات معها وأجلسته قربها، ولقد عاملت الرعية بالعدل

والإنصاف، فكانت شدتها في تنفيذ العقوبات لا تتناسب مع رقتها وشفقتها بالمستضعفين والمظلومين، أما في سياستها المالية: فقد كانت مدبرة حكيمة، إلى حد أنها اتهمت بالتقتير والبخل، واشتهرت بتبنيها للمواهب الفنية والإبداعية، فكانت تفتح أبواب قصرها للشعراء والفلاسفة والفنانين والمبدعين، وتغدق عليهم من الأموال ما يفوق الحصر، فكانت نعم الراعية للفنون والآداب، كذلك فقد كانت تغدق أموالها على الخاشية الملكية عند كل مناسبة.

في عام ٨٦٨م توفي الإمبراطور الروماني جليانوس، وخلفه على العرش الإمبراطور كلوديوس الذي لم يعترف بزنوبيا، ولم يقر نفوذها على الممالك التي هي في الأصل ملك لروما، لذلك رأى أنه لابد لروما من إعادة بسط نفوذها على الممالك التي تحت سيطرة هذه المرأة.

من أجل ذلك أعلنت روما الحرب على زنوبيا.

وأرسلت عدداً من الكتائب الرومانية بقيادة المحارب الشجاع "أورليان".

فلما علمت زنوبيا بقدوم الجيش لمحاربتها، استعدت وقادت بنفسها جيشها، فالتقى الجيشان في انطاكية، وفوجئ القائد الروماني أن الملكة خصم عنيد لا يستهان به، وذلك حين أوقعت به وبجيوشه

الهزيمة المرة تلو الأخرى، وفي كل اشتباك يحدث بين الجيشين تتقدم زنوبيا الصفوف بعزيمة وصلابة لا تعرف اللين ولا التعب.

وحاول "أورليان" أن يعقد هدنة مع زنوبيا، لكن روما وقفت له بالمرصاد، فقد ظلت تطالبه بالقضاء على الملكة التي تطاولت على عظمة الرومان، دون أن يدركوا صعوبة مطلبهم هذا.

ولكن لم يطل الزمن، فلقد مات كلوديوس، وخلفه أورليان على عرش روما.

فبادر من فوره لمفاوضة زنوبيا لإنهاء حالة الحرب بينهما.

ثم أوقف زحف جيوشه، واعترف بألقاب "وهب اللات" ابنها وامتيازاته، وأقر ولايته الشرعية على الأقاليم المفتوحة، وصُكّت النقود في أنطاكية والإسكندرية باسم وهب اللات وأورليانوس، فكانت على وجه منها صورة أحدهما، وعلى الوجه الثاني صورة الآخر.

لكن كل هذه العروض لم ترض زنوبيا.

ولم تتوافق مع شخصيتها الطموحة الجامحة.

فعهدت بمُلك مصر لولدها وهب اللات، ومنحته جميع الامتيازات، وأزالت من النقود صورة الإمبراطور أورليانوس، ثم نادت بالاستقلال التام.

ومنذ هذه اللحظة: تدهور الوضع بين زنوبيا وأورليانوس تدهوراً كبيراً.

كان رد أورليانوس على كل تلك الأفعال التي قامت بها زنوبيا: أنه قرر أن يضع كل إمكانيات روما للقضاء على تدمر، وإزالتها من الوجود، وانطلق ليبدأ الزحف المنتقم.

التقى جيش روما وجيش الشرق في أنطاكية مرة أخرى، لكن القائد المحنك كان قد درس كل أساليب خصمه في القتال، واستطاع أن يضع لنفسه الخطط التي تضمن له الفوز، لذلك فقد رجحت كفة الميزان نحو روما هذه المرة، وحققت فوزها الأول على زنوبيا بعد عدة مناوشات حربية، فاضطر جيش الملكة للانسحاب حتى حمص، وهناك دارت معركة فاصلة حامية، انتصر فيها أورليانوس انتصاراً ساحقا، فلم تجد زنوبيا أمامها إلا: الارتداد إلى تدمر وتحصينها، فزحف أورليانوس خلفها، وحاصر تدمر حصاراً شديداً، ثم طالب الملكة بتسليم المدينة، لكنها رفضت وظلت تقاتله من خلال الأبراج.

استمر حصار المدينة فترة طويلة، حتى بدأت المؤن تنضب شيئاً فشيئاً، وأصبح شبح الجوع يهدد سكان المدينة المحاصرة، بينما الجنود يتساءلون: أليست هناك نهاية لهذا الشقاء؟!

كل ذلك وزنوبيا صامدة، مقاتلة، موقنة من النصر القريب.

وفجأة قررت أن تنقذ تدمر من المجاعة التي كادت تلم بـها، وأن تنفذ هذا الأمر بنفسها.

تنكرت سراً، وركبت ناقة عبرت بها أسوار المدينة تحت جنـح الظلام، ثم أخذت تتسلل عبر معسكر الرومان كل جـرأة وثبـات، حتى تمكنت من تجاوز منطقة الحصار، فسارعت في طريقها نحـو كسرى تطلب معونته، وفي اليوم التالي علـم أورليـان بخروجـها فجهز فرقة من الخيالة وأرسلهم خلفها، وبينما كانت زنوبيـا تـهم باعتلاء أحد القوارب على شاطئ النهر، خرج عليها جنود الرومـان فجأة، واعتقلوها وقادوها أسيرة إلى أورليان.

قيد أورليانوس زنوبيا بالسلاسل الذهبية، ورفض فكرة أن يقتلـها على الفور، فقد كان رغم كل شيء معجباً بها كخصم عنيد قوي.

ولما رأت زنوبيا انهيار ملكها، وكيف أصبحت ذليلة أسيرة بعـد المجد والسلطان، بحثت حولها عن وسيلة تنقذها من هـذا العـذاب، وتضع حداً لحياتها الأليمة، فلما لم تجد: امتنعت عن تناول الطعـام حتى ماتت جوعاً، وهي في قمة كبريائها وشموخها.